الآيات القرآنية في أبيات إقبال الشعرية ــ اقتباساً واستشهاداً

الحافظ عطاء المصطفٰى ☆

Abstract

Iqbal reconstructed the religious and political thought in Islam by his Qur'anic poetry and criticized the false imagination to the extent of exaggerated extreme. The article strives to establish that though Iqbal was influenced by religious and political notion of his successors as well as the Western metaphysicians, he held a position entirely distinct from all of them. His contribution to the treasure house of Qur'anic poetry is therefore, unique and substantial.

لانكاد نعرف مصلحا إسلاميا بلغ مبلغ إقبال فى الاستشهاد بمحكم آياته ومما قوى باعثه على ذلك أنه نظم معظم كتبه بالفارسية أخذا بما درج عليه الفرس القدامى من اتخاذ الشعر أسلوب تعبير لهم عن دقائق المعنى فى التصوف خصوصا ، لأن الشعر أعلق بالحفظ وأوقع فى النفس، وكان ذلك من تقاليدهم الأدبية العلمية فى وقت معا ، كما ألفوا أن يضمنوا أشعارهم آيات قرآنية مستشهدون بها أو يشيرون إليها للتمثيل والتخييل وأن هؤلاء الشعراء كانوا من المتصوفة ، وإنّ دأبهم فى تطويع آيات الكتاب لمذهبهم الصوفى وطالما استشهدوا بها فصرفوها عن معانيها ولا غروفهم يستمدون أحكام مذهبهم من القرآن والحديث ، ولكن منهم من وسع المجال وهام فى الخيال فحمل لفظ القرآن مالا يحتمل من معنى ، وأعرض عن الصريح الظاهر .

☆ محاضر بقسم اللغة العربية وآدابها ، الجامعة الكلية الحكومية بفيصل آباد

وإقبال في أخذه عنهم التعبير بالشعر وتضمين شعره آيات قرآنية ، لا ينهج نهجهم في التأويل ، وإنما يدرك المعاني من ظاهر ألفاظها وما ذاك إلا لأنه كمصلح ديني أراد لقوله أن يستقيم في الإفهام لا أن يطمسه اللبس والغموض بحيث لايعضل ولا يلتوى ولا يذهب الناظر مذاهب شتى في إدراك المستفاد منه، خاصة أنه لم ينظم في التصوف فما كان ثمة من داع له إلى ما دعوا إليه وكانت له عنه مندوحة .

وإقبال مشبه في ذلك بعض الشبه محمد عاكف شاعر الترك المعروف بشاعر الإسلام الذى أخذ عن الفرس والترك القدماء تضمين شعره آى الذكر الحكيم وإن اختلف عن إقبال في أنه لم ينظم كتبا بتمامها ، كما يقيم الفارق بين إقبال وشعراء الصوفية من الفرس أنهم لم يكونوا على نية الإصلاح بالدين على المعلوم من نية إقبال ومحمد عاكف .

ونحن منالفتة إلى إقبال في نوعية ثقافته ، فنقول إنه ولد عام ١٨٧٣ . وتلقى العلم على أبيه في طفولته أسوة بفتيان عصره ثم أدخل مكتبا يتعلم فيه القرآن ، وغادر لمكتب إلى مدرسته البعثة الأسكونية في مسقط رأسه سيالكوت ، ولكن سرعان ما جلس مجلس التلميذ من عالمين كان لهما بعيد الأثر في هدايته إلى تلك الطريق التي سلكها في المقبل من أيامه .

أما أوّلهما فسيد مير حسن وثانيهما المستشرق الانجليزى توماس آرنولد وشيخه الأول كان واسع العلم بأشتات العلوم الإسلامية متضلعا من الفارسية وآدابها والثاني صاحب الفضل عليه في توجيهه إلى النظر في الفلسفة وترغيبه في أخذها عن علماء الغرب وأدركه حرفة الأدب فنظم الشعر في المتعارف من فنونه وذهب له في الشعر صيت، ثم ارتحل إلى الغرب طلباً للعلم ، عام ١٩٠٥، وعاد إلى بلاده بعد أعوام وقد وهنت في قرض الشعر رغبته بينما قويت في التعرف إلى مسائل الدين وقضايا الفكر وأخذه الأسف لماحاق ببلاد

المسلمين أفئذ من ظلم الحاكميين وتسلط المستعمرين ، ورأى الإصلاح لحال المسلمين إلا برجوعهم إلى دينهم واستمدادهم من أحكامه مايصلح به معاشهم ومعادهم ، وصح منه العزم على أن يكون مصلح أمورهم بدينهم ، وإن أضعف التعبير عن الدين والفلسفة بالشعر من شاعريته الغنائية .(١)

فنقف منه إزاء ذلك وقفنا من المصلح الديني الإسلامي المعبر عن فكره بالشعر والمتكيء في دعوته الإصلاحية إلى الكتاب المبين يستخرج منه الأحكام ويصحح به مايجا في عن الحق والصواب من فكر وقول وعمل ، ولا يحيد عن آية طرفة عين مستمدا منها قوام دعوته تارة ومؤيدابها دعواه تارة أخرى ، ونحن لانكاد ننقل صفحة من صفحات تآليفه وهي أحد عشر مؤلفا ، دون أن نقع على آية أوجزء منها في شعره.

وبعد أن آب إقبال من بلاد الغرب نهج له منهجا آخر في تفكيره وتعبيره ، فكف عن قول الشعر في المألوف من فنونه ليقوله في خاص من غرض هو أبعد مايكون عن أغراض دأب الشعراء المسلمين على القول فيها ، وقصره على التعبيربه عن رأيه في إصلاح أمور أهل القبلة خصوصا بفتح البصرعلى أحكام دينهم وحثهم على فهم قرآنهم ، ولكن شريطة عدم تحويل مفهوم صحيح إلى مفهوم غير صحيح والتجافي عما يفتقد الصواب من أقوال .

وبذلك يقيد بقيودلم يستطع منها انطلاقا إلى مألوفه في أعوام مضت ، وهو يعلن هذا مما انعقد عزمه بمثل قوله :

بگواز من نواخوان عرب را بهای کم نهادم لعل لب را
ازان نوری که از قرآن گرفتم سحر کردم صدوسی ساله شب را(٢)

والإيماء في قوله إلى أكثر من حقيقة ، لأنه في اتجاهه بالخطاب إلى شاعر العرب يورد على الخاطر ذلك الشاعر العربي الذى شغل عن قول الشعر بتدبر القرآن، ويذكر صدوفه عن القول في رقاق المعاني ، لأنه في غنية عنها بنور القرآن،

أى أنـه انـكب بكل مافى عزمه من قوة و كل مافى طاقته من سعة على قبس الهداية من كتاب الله ليحمل منه شعاعا هاديا لأولئـك الذين ضربوا فى تيه تحت ليل طويل .

ولا عـلينـا إذا سـميّنا إقبالا شاعر القرآن بمعنى أنه حمل القرآن فى عقله الـمـفـكـر وقـلبـه الـمـؤمن ، فضمن شعره ما شاء الله أن يضمن من آيات ليكون فى دعـوته الإصلاحية على الحجة التى لا ريب فيها ، ويفسرها بما كان أولو الألباب فى غفلة منه .

وهـذه الأبيـات يبـدو فيهـا مذهبه فى الاستشهاد بالآى على نحو خاص لا نـعهـده لدى مصلح إسلامى ممن تناولها بالدرس نهجهم فى الإصلاح أللهم إلا إذا استثنينا الشاعر التركى محمد عاكف ، وإن كان أقل منإ تضمينا للقرآن فى شعره .

آيـه تسـخيـر انـدرشـان كيسـت ايـن سپهـر نيـلـگـون حيـران كيسـت
رازدان (عـلـم الأسـماء) كـه بود مسـت أن سـاقـى وآن صهبـا كـه بـود
اى تـراتيـرى كـه مـاراسينه سفت حرف (ادعونى) كه گفت وباكه گفت (٣)

ومثـل هـذا من قوله جاعلنا فى حتمية تناوله بشىء من توضيح فالمراد من آية التسخير قوله تعالى فى سورة لقمان :

﴿ ألـم تـروا أن الله سـخّـر لـكـم ما فى السّموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (٤)

وهـو يـريـد ليـذكـر الإنسـان بـما خصه الله به من نعمه ليعرف فضله عليه ويشكره بتقواه .وقوله (علم الأسماء) من قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (٥)

أى أسـمـاء جـميع المسميات ، فأثره بمالم يؤثر به سواه من خلقه . ويريد إقبـال إقـامة الـدليـل عـلـى أن الله أكرم الإنسان بمالم يكرم به غيره من مخلوقاته ، فـعـليـه أن يـعـرف لـنـفسه علو منزلته فى الكون فيعمل على صون كرامته ويأبى أن يكون مستضعفا ، أما ذكره قوله تعالى (ادعونى)

فما جاء فى سورة غافر :

﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم﴾ (٦)

أى اعبدونى أثبكم ، فهو يذكر من يعبدالله بأن له عنده حسن الثواب وسوف يجازى بالحسنى .إقبال فى تجديده للفكر الدينى الإسلامى إنما يجدده وفق ماجاء فى التنزيل الحكيم والاستشهاد بآياته على أن تفهم حق فهمها ، وضرورة العمل بها فى رياضة الحياة وتوجيه فكرا المسلمين توجيهاً رشيدا .

لقد تعرض لتفسير القرآن بعض من أورد نالهم ذكرا من المصلحين الإسلاميّن ، فلمحمد عبده تفسير لسورة العصر وآخر لسورة الفاتحة وهما بين دفتى كتاب ، ويشبهه أبو الأعلى المودودى فى تفسير له خاص بسورة النور، ولأبى الكلام آزاد و تفسير عام للقرآن إلا أنه غير تام ، وفسر محمد عاكف سورا ونشر تفسيره فى الصحافة تباعا. وكان المراد من تفسيرهم بيان الأحكام على الخصوص ، ولانعرف لإقبال تفسيرا قرآنيا ، فهو بذلك مختلف عنهم إلا أن له تفسيرا لسورة الإخلاص يؤلف الفصل الآخير من كتاب له بعنوان الأسرار والرموز ويجعل تفسيره هذا تحت عنوانين يتخذهما من آياتها ، وصنيعه ينفرد به عن كل من فسروا ، لأنه يعبر شعرا كما أنه لا يركن إلى إيضاح معنى الآيات بما يدرك من معنى التوضيح ، بل ينظر فى الآية مستوحيا منها معانى وخواطر ترد على فكره ، متنقلا بين صورة وفكرة وحقيقة عامة تتولد منها فى ذهنه حقيقة خاصة، وهو فى هذا يشبه الصوفية بعض الشئ ولكن مع فارق هو أنه لم يصرف كلمة فى السورة عن الصحيح من معناها ، ففى تفسير كلمة (أحد) يبادر إلى أن التعريف بمذهبه فى الذاتية أو الفردية فيدعو المسلمين إلى أن يستمسكوا بذاتيتهم ، كما يذكر بذلك وحدة أهل لا إله إلا الله فى اعتصامهم بحبل جميعا ، فالتوحيد لله يتبعه عنده توحيد إنسانى ، على ما بين التوحيدين من فوارق .

أما فى تفسيره للصمد وهو الذى يصمد إليه العباد فى حوائجهم ،

فلايغرى للكلمة بالشرح ، ولكنه يستمد منها ما يتوارد على فكره وخياله بعد وقوفه على معناها ، فيتجه بكلام طويل إلى المسلم مذكرا إياه بأنه مادام قد عرف كنه الصمد ، فعليه أن ينقطع بقلبه و عقله عن تهافته على حطام دنياه ، و أن تعف نفسه عن سؤال أحد سوى الله ، وإن كانت له من حاجة فلا سألن قضاها له إلا الله أكرم الكرماء .

ثم يستخرج معنى من معنى يورد الشاهد تلو الشاهد ، وبصمد إلى التمثيل فينزه نصيحه عن أن يكون وحلا يداس بالقدم ويحب له أن يكون إلا كسير الذى يتحول بمسه المعدن الخسيس إلى معدن نفيس ، ويتجاوز المجاز إلى الحقيقة ، فيسوق خبرا طويلا للإمام مالك مع الرشيد ، ليضرب المثل الأروع لإباء الإمام وشممه ، وامتناعه من قبول دعوة الخلفية إليه أو قبوله الهدبة منه إلا على شرط .

فالإمام مالك يقبل هدية الرشيد على أنها إنصاف أهل المروء ة وعون على الحيلولة بينهم وبين مالا يليق بأمثلهم ، لقد قبل مالك عطاء الرشيد ولكن على مضض . (٧)

وهكذا يخوض بنا إقبال فى حقائق التاريخ مؤيدا له رأيا فيما ينبغى أن تكون عليه أخلاقية المسلم . وقد استمد من القرآن معنى كلمة ، إلا أنه استسلم لما أوردته عليه من معان بعيدة عن الأصلى من معناها ، إلا أنها قريبة مما يريد به تبشير اوله إصلاحا وعليه حضا ، معتمدا على آيات الكتاب المبين على حال من الحال وبكيفية لا عهد لنا بمثلها عند من عرفنا من المصلحين . وكأنما أراد إقبال لصاحب الفكر الإسلامى أن يطوره ويجدده مستندا إلى خلفية من القرآن ، ولا بأس من التنقل بين الواقع والخيال ، ورب حقيقة فسرت بالمجاز ، ولكن على ألا يضيع المتن فى الشرح ولا يتسمى القمر فى السماء بنوره فى الماء .

وهنا نجد الفرق بين منهج إقبال ومنهج المتصوفة ، فهم يوغلون فى

المجاز إيغالا ، تمحى به الحقيقة محوا ، ويهيمون في الخيال بحيث يصبح تفسيرهم ضربا من المحال ، وكان هذا في الأغلب مؤدياً إلى ركوب الشطط.(٨)

وإذا ذهبنا نتتبع آيات الذكر الحكيم في شعر إقبال ، ألفيناه يشير إليها في مواضع ويورد عبارات في مواضع أخرى وقد تطول العبارة فيرد جزء من الآية ، كما تقصر فلا يتسع البيت من شعره إلا لكلمة واحدة منها . وفي الأحايين يجتمع القرآن والحديث في البيت الواحد . وما غرضه من هذا إلا تأييد فكرته بالدليل كل الدليل ، وتأكيد مذهبه الإصلاحي الإسلامي الواقعي بالحقيقة التي لا ينبغي الشك سبيلا إليها .

وهو حين يخوض في موضوع أو يدلي برأى ، يستجمع كل ما جاء في القرآن متعلقاً به ليتزود من آياته ما يقتدر به على بسط القول في يسر ووضوح معتمدا على كلام الله مصدراً لما يشرح من معنى ويورد من لفظ في وقت معاً والأمثلة لهذا من دأبه في جميع كتبه من الكثرة في أبعد الغايات .

وإن شدة حرصه على الاستشهاد بالآيات لتبدو في إيراد الآية غير مرة بين الحين والحين . وقد يكون ذلك منه على عمد أو على غير عمد ، أى أنه ربما نسى ما ذكر من قبل في مقام ، فذكره في المقام نفسه أو ما يشبهه . كما يورد جزء ا من الآية في فصل ، وآخر في سواه ، أما الكيفية التي ضمن بها الآيات شعره فمحكومه بالتعبير والوزن والقافية فثرى الشطر يتسع لآية أو بعض منها ، وشطراً آخر يضيق بتمام الآية ولا يتسع إلا لكلمة منها .

والشواهد التي نستخرجها من كتبه لن تكون إلا قلا من كثر ، لأن الأشباه ينسى بعضها بعضاً ، وما تماثل أو تكرر يغني فيه ذكر بعضه عن ذكر جله أو كله يقول إقبال مناجيا ربه كما ذكرنا سابقاً .

ومأثور عنه أنه يذهب في اعترازه بالإنسان إلى أبعد مدى ، مناقضاً في ذلك الصوفية الذين يغالون في الغض من شأنه والحط من قدره ، والمناجاة من

أفانينهم الأدبية التي يعبرون فيها عن ذلة الإنسان أمام عزة الرحمن ، ويريدون لذاته تمام المحو والفناء في ذات الخالق .

وهم يفتنون ما وسعهم أن يفتنوا في وصف الإنسان بالضعيف والعجز، وإقبال يفصل الذات الإنسانية عن الذات الإلهية ، ويرى أنها تكن قدرا لاسبيل إلى تحديدها .وخير مايوضح موقفه من الإنسان الذى يعاند به الصوفية ، رأيه في الحلاج ، فعند بعض الباحثين أن المعتزلة والمتكلمين كفروا الحلاج في قوله أنا الحق على توهم أنه متمذهب بمذهب المانوية وهم زنادقة يقولون بالنور والظلمة ، وعبادتهم لله بالعشق وحده إثم وكفر .وفي عقيدتهم أن نفوسهم جزئيات مشتقة من النور وهو إله الخير ، وتلك النفوس في سجن من أجسادهم .

وهؤلاء وهم زنادقة يعبدون الله بالعشق الجسدى فكأنهم حديد ينجذب إلى المقناطيس ، وتلك الجزئيات من النور منجذبة إلى النور مصدرها الذى صدرت منه .وذهب عن هؤلاء الذين كفروا الحلاج أن فكرته عن العشق الجسدى للذات الإلهية لنفسها . ومحبة الله بالإرادة الإنسانية وهى الإرادة التي تكتمل وترتوى بالمعرفة .(٩)

وفي رأى إقبال أن الحلاج ذهب إلى السمو الإلهى مع وجوده مستقران في قلب المؤمن الذى يطهر قلبه بالرياضيات والمجاهدات .وخلق الله الإنسان ليكون حب الله جليا في الدنيا. ولقد وقع اختيار الله على الإنسان منذ الأزل لأنه خصه بمحبته فما أشبه الإنسان في صورته بالله ، أو كأنه في قولة الحلاج هو هو. ولذلك دافع إقبال عن الحلاج في عدة كتب لاعتزازه مثله بالفرد وذاتية ، وتناول الرأى فيه بالتصويب .

وشاعرنا الإنساني الحق ، أى المؤيد للإنسان الذى خصه الله من نعمه بمالم يخص سواه وفضله على مخلوقاته ، يقف بين يدى ربه مناجياً داعياً معبراً عن محبته وعبوديته ، إلا أنه في مناجاته ، يحمد لربه ماميزه به ، فيشير إلى قوله عز من

قائل فى سورة لقمان (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات ومافى الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) أى أنه جل شأنه سخر الشمس والقمر والنجوم والأنهار والدواب للإنسان حتى ينتفع بها ، وهذا فى التمييز والإيثار غاية .

وأورد جزءاً من قوله تعالى فى سورة البقرة (وعلم آدم الأسماء كلها) والمراد بذلك أن الله أراد الأجناس التى خلقها وميزها له وأوحى إلى قلبه مايسمو به النوع الإنسانى سمواً صورياً ومعنوياً ، فألهمه الأشياء بأسمائها وأمره بسردها على الملائكة .

وذلك إظهاراً لقدرة الإنسان على القيام بأمر تلك المسميات ، فأيقن الملائكة أنهم لا قبل لهم بخلافة الله فى أرضه .

أما البيت الرابع فتضمن كلمة من قوله تعالى فى سورة غافر(وقال ربكم ادعونى استجب لكم) أى اعبدونى اثبكم .

ومن معانى استجاب الله له قبل دعاءه وقضى حاجته ، وفى شق الصدور بالسهام كناية جميلة عن مؤاخذة الرب لعباده وتلطف فى طلب المغفرة وقبول المتاب .

ومما يتمسك به إقبال حجة على كرامة الإنسان على ربه وتميزه على مخلوقاته ماأورده ضمن أبيات يقول فيها :

چه گویم ازمن وازتوش کند(إناعرضنا) بی نقابش
فلک را لرزه بسرتن از فرا زمان وهم مکان اندربراو
نشیمن را دل آدم نهادست نصیب مشت خاکی او فتادست (١٠)

فهو يريد الذاتية التى طالما ردد لها فى كتبه ذكراً طويلاً ، وقال إنها جوهر الإنسان والصحيح من قيمته والعظيم من نعمته ، فقد حباه الله بها ليقتدر على مالا يقتدر عليه غيره من المخلوقات ويجد السبيل ما انقطع سبيل غيره إليه . وسرعان ماحضره قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾(١١)

أما تلك الأمانة فهي الطاعة العظيم شأنها ، وقد حملها الإنسان على ضعفه ، إلا أنه لم يراع حقها فكان ظلوماً ، كما كان بعاقبتها جهولا .

وقيل إن هذه الطاعة إنما تتم بإرادة من الإنسان واختيار ، أى أن السماوات والأرض خفن من الالتزام بطاعة الله لما تفرضة من تبعات ، إلا أن الإنسان بماله من عقل وروح قبل أن يتحمل تلك التبعة ظلمه وجهله مادام حراً مخيراً مستحقاً للمثوبة أو العفوية ، أما موضع الاهتمام هنا من شأنه ، فقدرته على التمييز بين خير وشر . وهذا جلى من ميزته رفيع من منزلته وذلك كله مترتب عند إقبال على تلك الذاتية التى انفرد بها وزلزلت بهيبتها الشمس والقمر ووسعت الكون بمارحب ، وإن قرت فى القلب ، ثم يقول كالمتعجب إنها منحت لهذا التراب أى الإنسان ، فبلغ بها من قدره ما بلغ .

وكأنما يحذو حذو شعراء الفرس فى تكريره وتضمينه لقدر من قوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ج ألست بربكم ط قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ (١٢)

وهذا من باب التمثيل ، أى أنه سبحانه وتعالى أقام الدليل على ربوبيته ووحدانيته ، وبذلك شهدت عقول بنى آدم ، فكانه أشهدهم على أنفسهم. وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا ونحن مقرون بوحدانيتك .

درنگر آن حلقه وحدت شكست آل ابراهيم بى ذوق (ألست)
صحبتش پاشيده جامش ريز ريز آنكه بود از باده جبريل مست

مـرد حـرافتـاد در بنـد جهـات باوطن پیوست وازیزدان گسست (١٣)

إنـه يضـمـن كـلامـه كـلـمة من تلك الآية للتذكير بفحواها وهو الإقرار بـالإيـمـان واليقين والتوحيد والاستقامة على جادة الدين فقد أخذ الله على الإنسان عهـدا بـمـا كـرمـه وشـرفـه ، وخصه بما لم يخص به سواه ، فأولى به ثم أولى به أن يكون أميناً على العهد راعياً لحرمته .

وفـي رأى هـذه الـداعية الـمـصـلـحة أن الانتـفـاع بـما جاء في كتاب الله وإصلاح أمر الأولى والآخرة ، إنما يكون بقدرة العلم والعمل به .

يـرى في اجتماع المسلمين على الإيمان أهم مظهر للوحدة بتمام معناها ، غيـر أنـه يـأسف جـد الأسف لتـصـدع تـلك الوحدة على أثر غفلتهم عن مضمون تـلك الآية التـي أورد كـلـمة مـنهـا ، وعـدم دخـولهـم تحت شروط أملتها عليهم .ويستـعير من الصوفية تعبيرهم ليشبه هؤلاء فيما صنعوا بندامى كانت تدور عليهم كـأس تـجـمـع شـمـلهم في مجلس أنسهم ، إلا أنهم حطموها ، فاندفق منها شراب جبـرائيل الذى كانوا يمثلون به ، وهي كناية عن نشوة العشق الإلهي ماسبق أن أشار إليـه الـمرة تلو الأخرى .وهو أن الدين جامع المسلمين في وحدة ، ودينهم لايفرق بيـنهـم فـي جـنـس ولا وطـن ، وأرضهم لهم كلهم ، وهم الأحرار إلا أنهم يختارون لأنـفسهـم الـوقـوع فـي الأسر وراء حدود وسدود ، وبذلك قطعوا ما أمر له به أن يوصل ، مما أذهب ريحهم وبدد شملهم .

وفي كتاب له آخر ، يورد كلمتين من تلك الآية في بيت واحد فيقول :

عيـار حسـن وخـوبـي ازدل كيسـت مه أو در طواف منزل كيست

(ألسـت) أز خلوت نازى كه برخاست (بـلـى) از پرده سازى كه برخاست

چـه آتـش در دل خـاكـي برأفروخت هزاران پرده يک آواز ما سوخت(١٤)

وإقبـال فـي هـذه الأبيات يركن إلى التعبير الصوفي فيتصدى لوصف قلب الإلهـي ، ويـذكـر (ألسـت وبـلـى) عـلى المعنى الذى ورد لها في الشعر الصوفي ،

فشعراء التصوف من الفرس لا يكاد يخلو ديوان لأحدهم من ذكر (يوم ألست) وهم يريدون اليوم الذى فرض الله عليهم فيه العشق الإلهى ، وفى هذا المعنى يقول حافظ الشيرازى من أهل القرن السابع الهجرى (امض يازاهد هنا ، لاتلمنا أن شربنا ، ففى يوم ألست بغير الراح ما اتحفنا) (١٥)

أما (بلى) فيأبى إلا إن يجعلها لجناً خفقت به أوتار المعارف ، وهذا ما يعرف عند الصوفية بالسماع الذى يثير الوجد ويحرك ويهز قلب الصوفى بالعشق .ومن معتاد شعراء التصوف أن يجعلوا من الحسناء والصهباء والغناء وحدة تعبيرية متكاملة .ثم يعجب لنار العشق وهى تتلظى فى الإنسان وهو من تراب ، ولحنه أو كلامه يكشف النقاب عن الحقيقة .ولكن سرعان ما يفيق إقبال من تلك النشوة الحالمة ولا يفوته أن يخالف المغالين منهم فيقول إن قلبه احترق غمافى عزلته ، ويعزم على إقامة وليمة تزدان وتشرف بأعظم ضيف ، وينثر ذاتيته فى الأرض حبة ، ويحتفظ بها لربه عزوجل .

وقد أراد بتلك الآية إيماء إلى الحق ، وتنقل من معنى إلى معنى متظاهراً بتأسيه بالصوفية ، إلى أن صرح بتحديه لهم وبين كيف أنه يعارضهم فى فصل ذاته عن الذات الإلهية ويعاندهم .

وفى دعوته إلى السير على ما أراد الله لعباده الصالحين ، يذكر الدعاء تبصرة وذكرى ، ويراه لازمة من لوازم الإيمان ويقول مايدرك منه أن الدعاء موصول بالتوحيد .وعلى ذكر التوحيد نقول إنه منقسم أقساما : منها التوحيد الإيمانى ويسمى التوحيد الامتثالى والتقليدى وهو توحيد العوام والمقلدين ، والتوحيد الاستدلالى والعقلى وهو علمى تحقيقى وليس إلا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية .والثالث توحيد الواصلين من الصوفية وهو حالى كشفى ، يشاهدون به الجمال الإلهى .(١٦)

وإقبال يريد توحيد أهل التقوى كما يؤخذ من كلامه الذى يمهد به فى

الدعاء فيورد قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿وإذا سألک عبادی عنی فأنی قریب اجیب دعوة الداعی إذا دعان فلیستجیبوا لی ولیؤمنوا بی لعلهم یرشدون﴾ (١٧)

والله قریب علما وإجابة وذلک لأنه یتعالی عن القرب مکانا .قیل إن أعرابیاسأل النبی ﷺ : أقریب ربنا لتناجیه ، أم لتنادیه ، فنزلت تلک الآیة .وشرط تقبل الله دعاء عبده أن یکون مؤمنا یعمل صالحا .یقول إقبال :

قرب جان باآنکه گفت (إنی قریب) أز حیات جاوداں بردن نصیب

فرد از توحید لاهوتی شود ملت از توحید جبروتی شود

ذرء ها ازیک نگاهی آفتاب یک نظر شو تاشود حق بی حجاب

یک نگاهی را بچشمی کم مبین از تجلی های توحید است این (١٨)

فالعبد یقترب من الرب بالإیمان الذی ینبنی علی التوحید أساساً ، والتوحید هو التقوی التی تسمو بالفرد والشعب فإقبال یربط بین الدعاء والإیمان والتوحید والتقوی ، ویری فی هذا التکامل وسیلة الإنسان إلی مافیه خیر دنیاه وأخراه ، ولا یفوته أن یوصی الإنسان بالنظر والتفکیر ، لأن ذلک یقضی إلی معرفة الله حق معرفته وتوحیده عن بینة .

وفی کلام یتخیله وراء الأفلاک علی لسان صوفی یسمی سید علی همدانی کان صاحب مشورة أمیر کشمیر فی القرن الرابع عشر ، یقول :

فاش گویم باتوای والا مقام باج راجز بادوکس دادن حرام

یا(أولی الأمر) ی که (منکم) شان است آیة حق حجت برهان اوست

یا جوانمردی چوصرصر تندخیز شهر گیر وخویش باز اندر ستیز (١٩)

ففی هذه الأبیات یستشهد بقوله تعالی فی سورة النساء :

﴿یاأیها الذین آمنوا أطیعوا الله وأطیعوا الرسول وأولی الأمر منکم﴾ (٢٠)

ومعلوم أن الأمر بطاعة أولى الأمر مشروط بأمرهم بطاعة الله أو رسوله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والمراد بأولى الأمر أمراء المسلمين فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه وبعده ، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاء ، أمر الله بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل بين الناس .

وطاعتهم واجبة بنص القرآن ماداموا على الحق ، وقيل إن المراد بأولى الأمر علماء الشرع (٢١)

ونحن نرى فى ذكر الخراج كناية عن خضوع المحكوم للحاكم ، أما صفات الحاكم التى يشترطها إقبال ، فقد وضحت لنا بتفسير الآية التى أوردها . وهو لا يرتضى حاكما إلا على تلك الصفات، أى حاكما عمر بالإيمان قلبه وطهر، واستنار عقله فاستطاع يسوس مجتمعاً يستقيم على خير.

لقد ذكر إقبال الملك فى مفتتح كلامه ثم انتقل إلى تمييز الحاكم بصفاته التى استمدها من صريح القرآن ، ثم قال عقب ذلك إن شأن الملك أوالحكم بأمثال هؤلاء الحاكم وله فى الكتاب المبين قواطع البراهين .

ويذكر عقب ذلك حاكما آخر لانجد اختلافا فى الصفات بينه وبين الحاكم الأول ، لأنه شجاع بجاهد فى سبيل الله ، وفرضية الجهاد على المسلم أمر معلوم لا يتسع المقام لإعادة القول فيها ، وحسبنا قولنا إن إقبالا مقيد فى يده أزمة الحكم بشروط معلومة من كتاب الله .

وفى تقيد بالشعر ، اضطر إلى الفصل بين (وأولى الأمر) و(منكم) ولم يذكر الواو ، وكانت ترجمة ما أورده لأولى الأمر (إما) إلا أن ذلك لم يغير من المعنى ، كماتحفظ بوضع منكم بين قوسين ، ولم يشر إلى حذف الواو اعتمادا على معرفة القارئ .

وهو يتصدى بالرد على الشبسترى من صوفية القرن السابع قال فى كتاب منظوم له بعنوان (روضة الأسرار) ماترجمته (لاتكن لنعمة الله من الجاحدين ، فأنت

لله بنور الله من المشاهدين .وإن كنت الله مرة رأيت ، فرؤيته هنا مرة أخرى استطعت .واليوم شاهد هنا صفته لتستطيع أن تشاهد غداذاته) (٢٢)

ومقطوع به أن الشبستری متکئ فی حکمه علی ماجاء فی سورة الأعراف من قوله عز من قائل :

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا كلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليک ط قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ج فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا﴾(٢٣)

أما إقبال فهو القائل :

دمادم خویش را اندر کمین باش گریزان از گمان سوی یقین باش
تب وتاب محبت را فنا نیست یقین ودیدرا نیز انتها نیست
چنان باذات حق خلوت گزینی ترا او بیند وتو اورا ببینی
منور شو بنور (لن ترانی) مژه برهم مزن تو خود نمانی
بخود محکم گذر اندر حضورش مشو ناپیدا اندر بحر نورش (٢٤)

وهذا من كلامه أحد الدلائل وما اكثرها على دأبه فى الذات الإنسانية ، فعنده أن الذات إذا بلغت المدى فى كمالها ، أمكن لها الاتصال المباشر بالذات المحيطة بالكل ، وفى قوله تلميح إلى قوله تعالى فى سورة النجم متعلقاً بما شاهده ﷺ ليلة المعراج :

﴿ مازاغ البصر وما طغى﴾ (٢٥)

أى أن نظرة أثبته ما رأى صحيح الإثبات ، فما حاذ عن رؤية ما امر برؤيته من عجائب لا إلف له بها .

ونحن نقع على الفرق جلياً بين الشبستری وإقبال ، فالأول صوفى من القائلين بفناء الذات الإنسانية تمام الفناء فى الذات الإلهية ، أما الثانى فيخالفه .

وإذا بلغ العشق ذروته تم اللقاء بين الرب والمربوب ، وسعد العاشق برؤية المعشوق وقد جمعتهما خلوة ، إلا أنهما كانا متقابلين كل ذات تقر فى موضعها فلا امتزاج ولا فناء لإحداهما فى الأخرى ، إن النور الذى يريده إقبال مستمدا من (لن ترانى) هو ما جاء فى تفسير الآية ، ويرغب إلى من يعى عنه أن يضىء ظلمات نفسه ليعرف خفاياها وبذلك تنصرف رؤيته عن الذات الإلهية إلى ذاته الإنسانية كما انصرفت رؤية موسى عليه السلام إلى الجبل . فالله لم يسأله أن يشاهده على الحقيقة ، كما أنه يريد له أن يشاهد ما امر بمشاهدته وهذا ما كان من شأنه ﷺ .وإقبال ينبه فى قوة إلى ضرورة اعتزاز المرء بذاته حتى وهو قريب شديد القرب من الذات الإلهية .وإذا ما أوجب الشبترى على مريده أن يفنى ذاته فى ذات الله قطرة فى بحر ، حذر إقبال من ذلك وحذر .

ونخرج بالموازنة بينهما بأن الشبترى فسّر كلام الله على مذهبه ، أما إقبال فأدرك منه ما أجمع عليه أهل التفسير .

وقد رأينا كيف ألمح مضمون ماجاء فى سورة النجم ، وأورد لفظين من سورة الأعراف فى شطر من بيت .

ويجرى كلاما على لسان المصلح الإسلامى جمال الدين الأفغانى المتوفى عام ١٨٩٨ يستهجن فيه مبادىء الشيوعية ، لأنها تجعل الإنسان صخرى الفؤاد وتسلبه حرية اختيار ما يريد عمله فتعجز ملكاته ويتعطل الفطرى من نزعاته .

وكان الظن بالشيوعية أن تخطر على باله أول ما تخطر ، كونها ضلالة يأتم كل من يستقيم له رأى عليها ، أو اشربت نفسه ميلا إلى الأخذ بها عقيدة روحية ، وما ذاك إلا لأنها الدعوة إلى اللادينية ، فهى الكفور الذى يتنزع الإنسان به انتزاعاً من فطرته التى جبل عليها .وكان حسب الشاعر أن يتحدث عن بعض ما تكشفت عنه من ختم على القلوب وبت لكل صلة روحية إنسانية بين أفراد

الجماعة ، وكأنما أراد المقايسة بين أثر الإيمان الصحيح والكفر الصريح فى حياة المسلمين والكافرين .

ويفضى ذكر قيود الشيوعية ، إلى تذكر ما ورد متعلقا بالمال فى القرآن ، كما يستطرد إلى قريب من ذلك يختص بأصول الشيوعية ، التى يراها مع أصول الإسلام على طرفى نقيض :

هيچ خير از مردك زركش بحو (لن تنالوا البر حتى تنفقوا)
ازربا آخرچه مى زايد؟ فتن كس نداند لذت قرض حسن
رزق خودرا از زمين بردن رواست اين متاع بنده وملك خداست
بنده مؤمن امين حق مالك است غيرحق هرشى كه بينى هالك است
وآيت حق ازملوك آيدنگون قريه ها از دخل شان خوار وزبون
آب ونان ماست ازيك مائده دوده آدم(كنفس واحده) (٢٦)

فلما كان الأمر على صلة بالمال ، خطر بباله أهل الحرص ، وجعل شطراً من البيت جزءاً من قوله تعالى فى سوره آل عمران :

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ (٢٧)

فالبر كمال الخير ، وبر الله رحمته ومرضاته ، أى أن عباد الله لن يظفروا برحمة الله ورضاه مالم يبذلوا المال والنفس فى سبيله عزوجل ، وتلك الآية الشريفة تناسب المقام تمام المناسبة ، لأن الشاعر مستشهد بها على أن من لا دين ولا مال له ، لا ينفق مما يحب وبالتالى لايشمله من ربه رضا ولا رحمة.

ولأن الربا متعلق بالمال ، زجر عن الربا وأشار إلى القرض الحسن الذى ورد ذكره فى عدة منها سورة المائدة :

﴿وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ (٢٨)

والقرض الحسن لغة ، ما يكون من مال حلال لا من سفه ولا أذى ، كما أن

المقرض لا يتقاضى عليه ربا ، أما إقراض الله قرضاً حسناً فهو التصدق ابتغاء وجه الله ، والله يجزى على أحسن الجزاء .

وهنا نتبين كيف يطرق إقبال المعنى ويخرج منه إلى المعنوى ، فهو يقبح آكل الربا فى المجتمع غير الإسلامى ، ثم يلتفت إلى حقيقة أخرى وهى انعدام الزكاة والإحسان فى المجتمع الشيوعى خصوصاً ، وذلك ما يتنافى عن أصول الدين الحنيف والزكاة ركن من أركانه .

ويستهجن مبدأ إلغاء ملكية الفرد للأرض فى النظام الشيوعى ، ويبصرّ بأن الأرض ملك الله الذى يخرج منها الرزق لعباده ، فالإنسان يستمد من أرض الله قوام حياته ، ولا يمتد به العمر بحيث تبقى تلك الأرض فى حوزته أبداً ، مما يؤكد على أن مليكتها ليست إلا لخالقها ، وأراد الشاعر أن يعبر عن استحالة الدوام فى الدنيا للإنسان ، فذكر قوله تعالى فى سورة القصص :

﴿ كل شيء هالك إلا وجه ﴾ (٢٩)

واكتفى بذكر كلمة واحدة من تلك الآية :

ولما كان فى ذكر المالك تذكر الملوك لأنهم يملكون ، وخطر على باله ماجاء عنهم فى القرآن ، ففى سورة النمل :

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ (٣٠)

وهذه الأية خاصة بما وقع لبلقيس ملكة سبأ مع نبى الله سليمان ، فقد شاورت بلقيس أصحاب مشورتها ، فقالوا إنهم أولو بأس شديد فى الحرب ، معلنين تمام أهبتهم لمحاربة قوم سليمان ، إلا أنها لم تقبل هذا العزم منهم وقالت إن الملوك إن انتصروا وغلبوا على قرية استذلوا الأعزة من أهلها وأفسدوها ، وآثرت أن ترسيل إليهم هدية كدلالة على مصافاتهم .

فإقبال إنما شاء يستهجن ذلك من دأب الملوك فى إظهار سخطه على

من يملك شيئا أى شيء وليكن تلك الأرض التى يتوهم الشيوعيون إمكان ملكية الإنسان لها ، فانثالت عليه الأفكار من كل جانب ليسفه ذلك الرأى الذى يريد له النقض من أساسه ، وبستعين بما جاء فى الكتاب المبين للرد على من لا يعتقدون أى دين .

والإيماء فى البيت الأخير إلى ما جاء فى مفتتح سورة النساء من قول الحق:

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة﴾(٣١)

وجمهور المفسرين على أن المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، أما الإمام محمد عبده فله فيها رأيان ، أولهما أن ظاهر الآية لا يفيد أن يكون المراد بالنفس والواحدة آدم ، سواء أكان هو الأب لجميع البشر أم لا . ويفهم من تنكير مابث منها ومن زوجها ، أن هذا التنكير لما ولد منهما ، أى أن ما بث منهما كثير من الرجال والنساء ، وبث من هؤلاء سائر الناس .

والرأى الثانى خلو القرآن من نص أصولى قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم ، والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادى البشرة المنتصب القامة الذى يطلق عليه الإنسان .

وعلى هذا الرأى لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف منهم .

ورأى محمد عبده لا يمنع من أن يكون آدم أبا البشر كلهم ، لأنه لم يقل إن القرآن ينفى هذا ، وإنما يقول إنه لا يثبته إثباتا قطعيا لا يحتمل التأويل .

والمتبارد من لفظ النفس يقطع النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ، أنها الماهية أو الحقيقة التى كان الإنسان بها ذلك الكائن الممتاز على غيره من الكائنات ، فالمعنى أن الله خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ، ولا فرق فى هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما عليه أهل الكتاب والمسلمون ، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والمتصوفة .

فتلك النفس الواحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسا ، ويتفق من يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم ، على كونها الحقيقة الجامعة لهم ، فالإنسانية مناط الواحدة ، وهي داعية الألفة والتعاطف بين البشر .(٣٢)

وهنا نصادف لقاء في صحة الفهم واتفاقا في تعرف الشيء ببيانه وشواهده بين عظيمين من قادة الفكر الإسلامي ، هما محمد عبده ومحمد إقبال .

وإقبال كرائد للفكر الإسلامي بتمام المعنى أعدى عدو لأصحاب الأهواء الضالة الذين لايكتفون بأن يجاهروا بضلالتهم بل يبذلون المسعى في سبيل دعوة غيرهم إلى أن ينسلخوا من دينهم ويسيروا في خطى الشيطان مثلهم .

يقول فيما عليه المعول من حال المؤمنين :

اهل حق را رمز توحيد ازبراست در (أتي الرحمن عبدا) مضمر است

ما مسلمانيم واولاد خليل از (أبيكم) گيرا گر خواهي دليل (٣٣)

ففي البيت الأول يضمن الشطر جزء ا من قوله تعالى في سورة مريم :

﴿ إن كلّ من في السّموات والأرض إلا أتي الرحمن عبدا﴾(٣٤)

كمايضمن الشطر الثاني من البيت الثاني كلمة من قوله تعالى في سورة الحج :

﴿ ملة أبيكم إبراهيم﴾ (٣٥)

والملة الدين ، وأصل ذلك أن يقال الملة الطريقة السلوكية ، ويرى بعضهم أن ذلك من إملال الكتاب لأن السنة تمل وتكتب ليعمل بها . ويرى آخرون أن ذلك من قولهم طرق ممل ومليل مسلوك معبد للسير ، والملة توطأ للناس ليسيروا عليها .(٣٦)

ولقد تكرر الأمر باتباع ملة إبراهيم في عدة سور منها سورة البقرة حيث قال عز من قائل :

﴿ ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه﴾ (٣٧)

ويجب للمسلم أن يتخلق بخلق الله :

مرد حق از کس نگیرد رنگ وبو　　مرد حق از حق پذیرد رنگ وبو

هر زمان اندر تپش جانی دگر　　هرزمان اورا چوحق شانی دگر

رازها بامرد مومن باز گوی　　شرح رمز (کل یوم) باز گوی (٣٨)

جاء في سورة الرحمن :

﴿يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ (٣٩)

ويختص المعنى بأن كل من في السماوات والأرض إلى الله فقير ويطلب الرزق والعون ، والله يغفر الذنوب ويشفي من سقم ويغني من فقر ويختص برحمته العالمين .

وهكذا يقبس إقبال من آى الذكر الحكيم ويضمنها شعره ما وجد إلى دعم الدعوى بحجتها ، وكان هذا دأبه في تآليفه ، فنحن لا ننظر في صفحة أولا نقلب صفحتين إلا وجدناه مرشدا إلى آية ، إو مستشهدا بما ورد في آية أو آيتين دفعا للشبهات بالبينات ، ولذلك كان أحرى عندنا أن نستدل بالقليل على الكثير ، وحسبنا ما وضحنا بالمثال بعد المثال .

يقول الشاعر في قصيدته (لااله الاّ الله) في بيت رقم ٧

اگرچہ بت ہیں جماعت کی آستیوں میں

مجھے ہے حکم اذان لا اله الاّ الله (٤٠)

هي أصنام واهم براها

وهمه لااله إلا الله (٤١)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الزمر :

﴿ ذلكم الله ربّكم له الملك ط لا إله إلاّ هو ج فأنّى تصرفون﴾(٤٢)

يقول الشاعر في قصيدته ذكر وفكر(الذكر والفكر) في بيت رقم : ١

یہ ہیں سب ایک ہی سالک کی جستجو کے مقام
وہ جس کی شان میں آیا ہے علم الأسماء (٤٣)

ذان لسالک الطموح مقام
نزلت فیه (علّم الأسماء) (٤٤)

وهذه الآية ماخوذة من سورة البقرة:

﴿وعلّم آدم الأسماء کلّها ثمّ عرضهم علی الملائکة فقال أنبئونی بأسماء هؤلاء إن کنتم صادقین﴾ (٤٥)

يقول الشاعر فی قصيدته توحيد (التوحيد) فی بيت رقم: ٣

میں نے اے میر سپہ دیکھی ہے
قل هو الله کی شمشیر سے خالی ہیں نیام (٤٦)

قائد الجیش قد رأیت غموداً
من (هوالله) مابها من حسام (٤٧)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الإخلاص: ﴿قل هو الله﴾ (٤٨)

يقول الشاعر فی قصيدته تصوف (التصوف) فی بيت رقم: ٤

خرد نے کہہ بھی دیا لاالہ تو کیا حاصل
دل ونگاہ مسلماں نہیں تو کچھ بھی نہیں (٤٩)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

يقول الشاعر فی قصيدته شكست (هزيمة) فی بيت رقم: ١

مجاہدانہ حرارت نہ رہی صوفی میں
بہانہ بے عملی کا بنی شراب الست(٥٠)

خلا الصّوفی من حرق وکدّ
شراب (ألست) معذرة البطالة (٥١)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الأعراف:

﴿ وإذ أخذ ربّک من بنيء آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ج ألست بربّكم ط قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غفلين ﴾ (٥٢)

يقول الشاعر في قصيدته محمد علي باب (محمّد علی الباب) في بيت رقم : ١

تھی خوب حضور علماء باب کی تقریر
بیچارہ غلط پڑھتا تھا اعـــــــراب ســـــــموت (٥٣)

أجاب (الباب) في حفل مضيضاً في مقالات
وفات الشيخ توفيق بإعراب (السموت) (٥٤)

ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن فلحن في اعراب السموات فضحک الحاضرون ، فقال : إنّ بشرى إمامتي تحرير الآيات من الإعراب .

يقول الشاعر في قصيدته لاهور وكراچي (لاهور وكراچی) في بيت رقم : ٣

آہ ! اے مردی مسلماں تجھے کیا یاد نہیں
حرف لا تـــدع مـــع الله الهـــا آخـــر (٥٥)

آه للمسلم غفلان نسيّاً مادری
سرّ ﴿ لاتدع مع الله إلها آخر﴾ (٥٦)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الشعراء :

﴿ فلاتدع مع الله إلهاً أخر فتكون من المعذّبين﴾(٥٧)

يقول الشاعر في قصيدته خافاني (الخاقانی) في بيت رقم : ٣

خاموش ہے عالم معانی
کہتا نہیں حرف لن ترانی(٥٨)

يـــجتـــــار بـــعـــــالـــم الـــمـــعـــانـــى

لايســـــمـــــع قـــول : ﴿ لـــن تـــرانـــى﴾ (٥٩)

وهذه الآية ماخوذة من سورة الأعراف :

﴿ولـما جاء موسى لميقاتنا ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليک قال لن ترانى ولكن انظر ... ﴾ (٦٠)

بـعـد هـذا البـحـث الطويل وصلت إلى نتيجة أنّ اقبالاً يحرص فى إدخال الآيـات الـقـرآنية فـى شـعـره مستشهـداً عـلى موقفه الإسلامى الإصلاحى بتفكيره الـجـديـد فى الفكر الدينى العملى وتفسير الآيات بالمأثور المستقيم فى الفهم ولا يـمـيـل إلـى تـاويل ولا تمثيل لأنّه ماكان صاحب فرقة دينية ولا شيخا لطريقة خاصة ليبـحـث لهـا عـمـا يؤيدها من براهين فى القرآن . بل كان ذلک الموقن الذى فهم الـقـرآن على ما ينبغى أن يفهم ، فما حرف معنى من معانيه عن أصله ، ولذلک رأى أن تكون الهداية به ، واستلزم قيام الدعوة الإصلاحية فى الإسلام على أساس منه .

وكـان عـلـى الـمتـخيـرفـى إبـداء رأيـه وهـو مـن هو فى سعة الإحاطة علما بالمذاهب الفلسفية والاتجاهات الروحية فى الشرق والغرب وفى الغابر والحاضر .

وتـلـک النوعية لثقافته التى تكاملت مقوماتها ، كانت على الأرجح عمدة السبـب فـى قدرته على التمييز بين الآراء والمذاهب ، لاختيار الأفضل الأمثل ، إلا أنـه لـم يستـعـر نـفسه مذهباً لسواء ، بل فاضل بين وجهات النظر إلى أن تأتى له أن يـكـون مـن فـادة الفكر الإسلامى ، وأصبحت له الريادة على نحو خاص به ، فلفت إلـى كيف يـصـلـح أمـر الـمسـلمين بالدين ، وجعل هذا جوهر دعوته .ولما كانت أحـكـامـه فى الكتاب لا تتغاير بتغاير الزمان والمكان ، لم يذهب القرآن عن خاطره فى كل مافاضت به قريحته نثراً أوشعراً .

ونـحن وإن كنا لاندعى الاطلاع على كل مانظم الفرس والترک من شعر يتـصـل بـالـقـرآن ، لانـحـب أن شاعرا فارسياً أو تركيا كان أكثر التفاتاً إلى القرآن

وأشد حرصاً على الاستشهاد بآياته من إقبال ، مما خلع على تآليفه المنظومة طابعاً قرآنياً على حدة ، وجعل دراستها دراسة للقرآن ضمناً ولا ريب .

إنه لم يحذ حذ وشعراء الفرس والترك في نظم قصة قرآنية حملها معظمهم على غير ماتحمل عليه وطوعوها لخاص من أغراضهم ، ولكنه اكتفى بالإشارة إلى القصص القرآني لاستخراج العبرة والتمثيل بالحقيقة التي لامرية فيها . والحق أن هذا هو غرض القرآن من الإتيان بما فيه من قصص ، فما احتوى الكتاب إلا الحق ولا تحدث إلا عن الواقع بحذافيره . وبذلك ندرك الجدية لدى إقبال والواقعية ، وبهما لدعاة الإصلاح أذن تصغي وعقل يعي .

وعرفنا من بعض شعراء الفارسية والتركية من أفسحوا مواضع للآيات في مدائحهم ، وقلنا إن كلامهم يسوء وقعاً في النفوس المؤمنة ولا يصح في العقول المفكرة وكان جرأة على كلام الله ليس لهما في الذوق مساغ ، وإقحاما له فيما ينبغي أن يكون بنجوة عنه .

ولكن إقبالا على منهج ، لأنه يبصر ويذكر بقيم ومثل إسلامية يريد للمسلمين الأخذ بها في مختلف شئونهم من اجتماعية وسياسية وغيرها ، وقد تتبع في القرآن أصولها ، فأورد هذه الأصول آيات أو إشارات إليها في معاريض كلامه . وأورد أن يدعم بها وجهة نظره ويستشهد على صحة دعواه ، ولم يتناول الآيات بالتفسير على ما يفهم من معنى التفسير ، بل إن إشارته إلى الآية في الأحايين قد تستوجب من قارئه أن يبحث طويلا في التفاسير ، ونضرب لذالك مثلا ما أدرجه تحت عنوان تفسير سورة الأخلاص في كتابه (الأسرار والرموز) فقد اتخذ من آيات السورة عناوين للخوض في أغراض خاصة تعلقت بالمربوب لابالرب ، وكأنما شاء أن تكون الآية مذكرة بحقيقة خاصة لاينبغي لها أن تنسى . ومثال ذلك قوله :

من له الأسلاف والأرض ادعى (لم يلد) ينسى و (لم يولد) معا

فمثل هذا بيّن في دلالته على ماقصد إلى التمثيل له والإشارة إليه.

ولايـختـلف عـاقـلان فـي أنـه أراد التـنبيـه عـلـى تناسي المسلمين أنابهم وأوطانهم ليصبحوا بنعمة المين إخوانا . وحاشا له أن يريد تشبيهم بمن يتعالى عما يصفون .

☆☆☆☆☆

الهوامش

(١) إقبال والقرآن لدكتور حسين مجيب مصرى

(٢) ارمغان حجاز ، كليات : ٩٦٣

(٣) جاويد نامه ، ص :٥٩٦ ، كليات

(٤) لقمان : ٢٠ (٥) البقرة : ٣١

(٦) غافر : ٦٠ (٧) مالک لمحمد أبوزهرة ص : ٣٥

(٨) إقبال بين المصلحين الإسلاميين، الدكتور حسين مجيب المصرى،ص: ٢٦٠

(٩) Massigonon : La passion D' Al-Hallaj p:161-162

(١٠) گلشن راز جديد ، ص : ٥٥٤ كليات

(١١) الأحزاب : ٧٢ (١٢) الأعراف : ١٧٢

(١٣) جاويد نامه ، ص : ٦٧٩ ، كليات

(١٤) گلشن راز جديد ، ص : ٥٦٦ ، كليات

(١٥) ديوان حافظ شيرازى ، حافظ ، ص : ٢١

(١٦) د/حسين مجيب المصرى : في السماء ، ص : ٢٩٩

(١٧) البقرة : ١٨٦ (١٨) جاويد نامه ، ص : ٧٨٠ ، ٧٨١ ، كليات

(١٩) جاويد نامه ، ص : ٧٥٢ ، كليات

(٢٠) النساء : ٥٩ (٢١) البيضاوى : تفسير البيضاوى ، ص : ١١٥

(٢٢) محمود شبسترى : گلشن راز ، ص : ١٩ و ٩٠ .

(٢٣) الأعراف : ١٤٣ (٢٤) گلشن راز جديد ، ص : ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، كليات

(٢٥) النجم : ١٧ (٢٦) جاويد نامه ، ص : ٦٦٨ ، ٦٦٨ ، كليات

(۲۷) آل عمران : ۹۲ (۲۸) المائدة : ۱۲ (۲۹) القصص : ۸۸

(۳۰) النمل : ۳٤ (۳۱) النساء : ۱

(۳۲) محمد عبده : تفيسر القرآن الحكيم ، ص : ۳۲٦ ـ ۳۲۷

(۳۳) اسرار ورموز ، ص : ۹۱، ۵۲ كليات

(۳٤) مريم : ۹۳ (۳۵) الحج : ۷۸

(۳٦) ابراهيم حمروش : معجم ألفاظ القرآن ۲/ ٦۵۵

(۳۷) البقرة : ۱۳۰ (۳۸) جاويد نامه ، ص : ٦٦۵ ، كليات

(۳۹) الرحمن : ۲۹ (٤۰) ضرب كليم : ۵۹٦ ، كليات إقبال

(٤۱) ديوان إقبال ، لسيد عبدالماجد الغورى : ۲۳

(٤۲) الزمر : ٦ (٤۳) ضرب كليم : ٦۰۹ ، كليات إقبال

(٤٤) ديوان محمد إقبال ، ص : ۲۸

(٤۵) البقرة: ۳۱ (٤٦) ضرب كليم : ٦۱۲ ، كليات إقبال

(٤۷) ديوان إقبال ، ص : ۲۹

(٤۸) الإخلاص : ۱ (٤۹) ضرب كليم : ٦۲٤ ، كليات إقبال

(۵۰) ضرب كليم : ٦۳۰ ، كليات إقبال

(۵۱) ديوان محمد إقبال ، ص : ۳۹

(۵۲) الأعراف : ۱۷۲ (۵۳) ضرب كليم : ٦۳۹ ، كليات إقبال

(۵٤) ديوان محمد إقبال، ص : ٤٤

(۵۵) ضرب كليم : ٦۵۳ ، كليات إقبال

(۵٦) ديوان إقبال ، ص: ۵۰ (۵۷) الشعراء : ۲۱۳

(۵۸) ضرب كليم : ۷۳۹ ، كليات إقبال

(۵۹) ديوان إقبال ، ص : ۹۷ (٦۰) الأعراف : ۱٤۳

المصادر والمراجع

(١) ارمغان حجاز ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمى لاهور

(٢) اسرار ورموز ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمى لاهور

(٣) إقبال بين المصلحين الإسلاميين ، الدكتور حسين مجيب المصرى ، مكتبة الأنجلو المصرية

(٤) إقبال والقرآن ، لدكتور حسين مجيب مصرى ، القاهرة ، ١٩٧٩م

(٥) تفسير البيضاوى ، البيضاوى ، دارالفكر للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الجديدة ١٤١٦هـ

(٦) تفسير القرآن الحكيم ،محمد عبده ، القاهرة ١٣٢٥هـ

(٧) جاويد نامه ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمى لاهور

(٨) ديوان حافظ شيرازى ، الحافظ ، بولاق ، ١٢٨١هـ

(٩) ديوان إقبال ، لسيد عبدالماجد الغورى ، دارابن كثير دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م

(١٠) ضرب كليم ، علامه محمد إقبال ، إقبال اكيڈمى لاهور

(١١) فى السماء ، د/حسين مجيب المصرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م

(١٢) گلشن راز ، محمود شبسترى ،طهران

(١٣) معجم ألفاظ القرآن، ابراهيم حمدوش ، القاهرة ، ١٩٧٠م

(١٤) La passion D' Al-Hallaj By Massigonon (Paris 1922)

✿ ✿ ✿